COLUMBIA UNIVERSITY

893.7992 W898

وصايا الشيوخ للشبان

مطبعة الهلال بالفجالة بمصر

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES

وصايا الشيوخ للشبان

خطاب لطلبة العلم في الجلسة الاحتفالية للمدرسة الكلية السورية في ١١ تموز سنة ١٨٩٤

للدكتور يوحنا ورتبات
عضو المجمع الطبي الجراحي في ادنبرج ومجمع علم الامراض الوافدة في لندن

نقلاً عن جريدة ثمرات الفنون الغراء

بالرخصة الرسمية من جانب نظارة المعارف العمومية الجليلة

نمرة ٤/٥٦٢ في ١٣ صفر سنة ١٣١٢

مطبعة الهلال بالفجالة بمصر

سنة ١٩٠٤

893.7992
W898

Wortabet, John
Waṣāyẓ al-shuyūkh lil-shubbān

وصايا الشيوخ للشبان

لا استطيع ان اشهد هذا المحفل واري امامي هذا العدد العظيم من طلبة العلم ولا اذكر ان الحياة جهاد والناس فيه على اربع طبقات الاولى الاحداث الذين يتهيأون له . والثانية الشبان الذين يشرعون فيه . والثالثة الكهول الذين يجاهدونه . والرابعة الشيوخ الذين فرغوا منه . واني اذكر أيضاً ان بعض الحكماء الذين جازوا هذه الادوار وعرفوا شأنها بالخبرة والمراقبة قد خلفوا من الوصايا والنصائح للذين يبدأون الحياة ومعرفتهم بها قاصرة ما هو على غاية من الفائدة . وأني رافع لكم ايها الشبان بعض ما قالوه واوصوكم بما يجب عليكم من العمل وما يجب من الحذر حتى تكونوا كالسفينة التي تجوز الابحر المتلاطمة بالامواج وتصل بالسلامة الى المرفإ المقصود ولا تنكسر كما تكسرت سفن كثيرة وقذفها السيل الى الشاطىء قطعاً متفرقة لن تجمع . وهذه الاقوال ممتدة من اول التاريخ المعروف الى الآن اذكر لكم بعض اعصرها لتروا ما لها من قِدَم الزمان وما يحق لها من الكرامة والاعتبار

واقدمها رسالة وضعها امير من الدولة الخامسة المصرية قبل هذا العهد بنحو خمسة آلاف سنة يقول فيها الابن الصالح من نعم الله . ان كنت حكيماً ربِّ ابنك في مخافة الله . اذا تعظم الانسان اذلّه الله . اذا صرت عظيماً بعد ان كنت وضيعاً وصرت وجيهاً في بلدك وجمعت مالاً كثيرًا وصرت سيدًا منظورًا فلا تستكبر لسبب غناك لان الذي اعطاك هو الله ولا تحتقر من كان فقيرًا كما كنت . وهو كلام عجيب قيل لنا في زمان هو اشبه لنا بالخيال وكنا نرتاب خبره لو لم يكن البردي المكتوب عليه من ذلك العهد محفوظاً الى الآن في مكتبة باريس وقام بعده بنحو الف سنة ملك من الدولة الثانية عشرة كتب حكماً لابنه أوسارتاسن

الاول ومن اقوال احدعماله التي لا تزال منقوشة على صخور مصر الى الآن نرى شيئاً من قياسهم الادبي في تلك الاعصر قال لم اذخر شيئاً لنفسي مما لغيري — لم اقهر يتيماً ولم اظلم ارملة . ومن اقوالهم في ذلك الزمان أيضاً لم اكذب ولم اسرق ولم ازنِ ولم اقتل ولم اكسل ولم اسكر ولم انافق ولم اضرب خفية ولم ادنس ضميري لارضاء غيري . لم اظلم المسكين ولم اكلف احداً الا وسعه ولم ابح لسيد ان يجور على عبده ولم اكن سبباً لبكاء احد وهلاكه . اعطيت خبزاً للجائع وماءً للعطشان ولباساً للعريان ومأوى للغريب . وقام بعد ذلك بنحو الف سنة سليمان الملك وكتب أمثاله المعروفة التي تحث الشبان على طلب العلم والجد في العمل وتقوى الله وعدم مجاراة الخطاة والتحفظ من ملق الاشرار . وقام بعدهم قرب التاريخ المسيحي سنكا الفيلسوف واوريليوس الامبراطور الروماني ثم حكماء العرب الذين اقوالهم للشبان وأمثالهم واشعارهم معروفة عند كل الذين يقرأون اللغة العربية . وقد طالعت في هذه الايام كتاباً عظيم الفائدة في هذا الباب لاحد علماء هذا العصر الدكتور ليس واسندت كلامي الى ما قالوه فكأني رسول ابلغكم ما اخذته عنهم وعرفت صدقه بخبرة الايام

والامر الاوَّل الذي انبهكم اليه هو ان كل ما يتعلق بحياة الانسان من حيث تصرفه ونجاحه وما يناله من المقام والاسم بين الناس عائد الى صفاته اي الى الخلق المفطور هو عليه والطباع التي يجري عليها وهو ما اشار اليه الشاعر في قوله

كل امرئٍ متصرِّف بطباعه ليس امرئٌ الا على ما يطبع

وعلى ذلك يكون حسن السيرة اذا كان حسن الصفات وردي التصرف اذا كان رديَّ الخلق والسجية . ومن امثال العامة كل اناءٍ ينضح بما فيه بمعنى ان العلاقة لازمة بين ما يكون الانسان عليه باطناً وحقيقةً وما تكون اعماله وظواهره . ومن اخبار الانكليز ان برْنس الشاعر كان ماشياً يوماً في مدينة ادنبرج مع بعض الاغنياء فلقيا رجلاً ثيابه الخشنة تدل على انه من ارياف البلاد

وعند اللقاء صافحه برْنس مصافحة الصديق الحبيب ووقف الغني متحيرًا مما رآه فقال له الشاعر عجبت من هذه التحية ولكنك لا تعجب متى عرفت انها لم تكن لأثواب الرجل بل لما هو عليه من الصفات الرفيعة التي تعلو صفاتك علوًّا كبيرًا . قال الشاعر

لا تنظرنّ لاثواب على رجلٍ ان رمت تعرفه وانظر الى ادبِهْ

ومن المحقق ان الخلق امر نامٍ بحيث ان كل فكر وشعور يضيف شيئًا الى الاصل فان كان ما يخالج عقولكم وقلوبكم الامور الرفيعة الجليلة صارت صفاتكم جميلة محبوبة وان كانت فاسدة قبيحة صارت صفاتكم قبيحة مكروهة . وعلى ذلك كان لكم ان تبنوا في انفسكم شيئًا فشيئًا بناءً سنياً أو كوخًا حقيرًا قذرًا . ثم قد تكون الصفات احيانًا خفية مكتومة فيحصل الانعكاس ولكن الغالب ان الظاهر يدل على الباطن وان الوجه والحركات الخارجية تدلّ على ما وراءها من سجايا النفس فلا بدّ من ان تظهر ومهما حاول الرجل ان يستر قبائحه برداء الفضل

ثوب الرياء يشفُّ عما تحته فاذا اكتسيت به فانك عارِ

وهو كل ما يحمله الانسان الى ما بعد الموت . قيل ان اسكندر الكبير اوصى ان تُخرَج يداه من الكفن عند دفنه ليرى الجميع ان الذي ملك الارض باسرها لم يأخذ معه شيئًا . هكذا نحن نذهب لا بما كسبناه من المال بل بما رسيناه في انفسنا من العزّة وكرم الاخلاق وطهارة القلب أو اللؤم والفساد والخساسة

ولما كان الانسان عضوًا في العائلة وفي الهيئة الاجتماعية كانت له علاقة شديدة باخوانه البشر ينشأ منها بالضرورة عمل الواحد منهم في الآخر فينتشر من كل انسان شيءٌ من التأثير في الذين حوله كثر أو قلّ ظهر أو خفي صلح أو فسد ويكون كل فرد من افراد الناس إما من العاملين المصلحين الذين يبثون الخير في الارض أو من المفسدين الذين يعيثون فيها ويملأونها بالقبائح . وكثيرًا

ما يكون هذا التأثير على سبيل المثال الذي لا يسمع له صوت ولكنه يعمل في النفس خفية ويكسبها الاخلاق الكريمة اذا رأت الصدق والاستقامة والنزاهة والعفة والاجتهاد ظاهرة في صفات الذين تنظر اليهم . والتاريخ مشحون باسماء الابطال والقواد والعلماء والصالحين الذين لم يقتصر عملهم في أهل زمانهم بل امتدت شهرتهم مدى الاجيال وكانت سيرتهم مثالاً وقدوة لخلق عظيم

ولصفات الانسان علاقة شديدة بالنجاح في الحياة . ويراد به نيل اعظم ما يمكن من السعادة في هذه الدنيا غير ان ما يعدّه البعض نجاحاً قد يكون في الحقيقة خيبة فان الرجل الذي يربح مالاً عظيماً بالحرام ولا ينال ذلك الا بخسارة عافيته أو خيانة لا يقال انه من اهل الفلاح بل اذا ربح العالم كله وخسر نفسه لم يكن من الرابحين . وبالعكس قد يظهر الامر خيبة ويكون في الحقيقة فوزاً عظيماً كما حدث من مئتي سنة ونيف لملتون الشاعر الانكليزي الذي باع قصيدته المشهورة « بفقد الفردوس » بخمس عشرة ليرة فقط وقد قرأها عامة أهل بلاده من ذلك الزمان الى الآن وستدوم سيدةً في الشعر ما دامت اللغة الانكليزية في الوجود . وكما حدث أيضاً قبل الميلاد المسيحي بخمس مئة سنة لما دخل ملك الفرس بلاد اليونان بتسعمائة الف رجل وسار الى مضيق ثرموبيلي فعارضه هناك ليونيداس ملك سبارتا بثلاث مئة رجل من قومه وستة آلاف من أقوام مختلفين ولم يرتدوا عند مقابلة ذلك الجيش الجرّار بل قاتلوا حتى قُتلوا عن آخرهم . ولما انتهت الحرب اقام اليونان نصباً في ذلك المضيق حيث سقط السبارتيون وكتبوا عليه هذه الكلمات ايها السائر قل لاهل لقيديمونيا اننا هنا طاعةً لامرهم . فلمن من الفريقين يا ترى كان الفوز في تلك الواقعة للفرس أو للسبارتيين الذين هلكوا وهم يحمون بلادهم وجعل التاريخ اسمهم خالداً ابداً

ولما كان النجاح ما يتمناه كل أحد فلا بد من بعض القول في ما يؤدي اليه واوّل ذلك الجدّ أي العمل الدائم بكل ما لكم من القوة وهو ما اشار اليه الشاعر في قوله

الجدُّ في الجدِّ والحرمانُ في الكسلِ
فانصب تصب عن قريب غاية الاملِ

وهو شرط لازم في كل مكان وزمان ولكن على الخصوص في هذه الايام حيث اشتدَّت المناظرة في العلم والتجارة والصناعة حتى لم يبق سبيل للنجاح الا للمجتهد فقط . ولا يقوم مقامه شيء لان الذكآء الذي يحسبه قوم كافياً كافلاً للنجاح وهمٌ لا يخدع الا المعجبين بانفسهم . وضرب القدمآء لذلك حكاية معروفة وهي حكاية ارنب وسلحفاة تراهنا على سباق ولما كان الارنب واثقاً بسرعة جريه تقاعد ونام واما السلحفاة فلم يكن لها مع بطء حركتها الا الكدّ المتصل وكان ذلك سبب فوزها . ثم ان احذق الناس هم الذين اشتهروا بالكدّ العظيم والعمل الدائم وما بلغ ابدًا مقاماً رفيعاً الا من اعتزل القول بالسعد والنحس وقاوم المشاق التي عارضته واخترق صفوف ما عاداه من صروف الدهر الى ان نال المطلوب فكان لينيوس واضع النظام النباتي المعروف باسمه فقيرًا جدًّا يرقع حذاءه بالورق ويتسوَّل الطعام من اصدقائه وملر الجيولوجي الشهير صانعاً في مقلع الحجارة وستفنسون مخترع القطار البخاري اجيرًا لاستخراج الفحم الحجري من الارض وواط الذي استنبط الآلة البخارية ضعيف البنية لم يستطع الذهاب الى المدرسة وكثيرون غيرهم جدُّوا ووجدوا لانهم قالوا

لاستسهلنَّ الصعب او ادرك المنى فما انقادت الآمال الا لصابر

وكيف كان الامر ابعدوا عن البطالة والكسل فهما مفسدة لكل انسان وسبب لشقآء الشبان الاغنيآء الذين لا يعرفون كيف يشغلون الزمان الا بان يلقوا بانفسهم الى التجارب والفحشاء والمرض والهلاك . وامثلة ذلك كثيرة شهيرة عبرةٌ لمن يعتبر مثبتة للمثل السائر راس البطال دكان الشيطان وقول الشاعر

ان الشباب والفراغ والجدا مفسدة للمرء ايُّ مفسده

ويشترط أيضاً للنجاح ان يكون لكم غرض خاص من اغراض الحياة تجعلونه ابدًا نصب العين سواءٌ كان ذلك صناعة أو تجارة أو علماً . لانه من

الواضح انكم اذا فرّقتم قوّتكم في اشياء كثيرة كنتم ضعفاء فيها جميعاً واذا جمعتموها في شيء واحد كنتم اقوياء فيه . نعم لا بد من الدرس الواسع وتحصيل المعارف العامة لان هذا يهذب عقولكم ويزيدكم قوة في مباشرة الاعمال ولكن لا بد من صرف قواكم الى غرض واحد وانتم تختارونه وتتوقون اليه . غير ان هذا الاختيار لا يكون دائماً في طاقة الانسان بل كثيراً ما يندفع اليه باتفاق الاحوال . ولكن عليه ان يتقن مهنته مهما كانت فلا ترضوا الا بما يمكن من افضل وسائل العلم والاهلية للقيام بها حق القيام لانه اذا حدث نقص من هذا القبيل عارضكم الدهر واوجب لكم الفشل والاسف . ومن اقوال الحكماء لا تدخلنّ امراً لا تكون ماهراً فيه . وقولهم ايضاً لا تطلب سرعة العمل واطلب تجويده فان الناس لا يسألون في كم فرغ وانما ينظرون الى اتقانه وجودة صنعته . ثم اذا اخترتم صناعة وجعلتموها غرض الحياة وتعلمتموها حق العلم فالزموها بلا انقطاع الى النهاية لانكم اذا تقاعدتم عنها او بدلتموها بغيرها كانت النتيجة غالباً خيبة الامل

وقلّ من جدّ في أمرٍ يحاوله واستعمل الصبر الاّ فاز بالظفرِ

غير انه لو كان جهدكم في العمل عظيماً وقدرتكم في الصناعة شهيرة ومواظبتكم اموركم غير منقطعة اذا لم تكن صفاتكم صفات الصدق والاستقامة والطهارة لم تنالوا شيئاً لانه كما يغرق السفينة ثقب واحد كذلك فقد شيء من هذه الاوصاف كافٍ لاسقاطكم وتعطيل آمالكم . ألم تروا المرة بعد المرة ان الكاذب والخائن والسكير والمقامر والفاسد والمتعظم لا يفلحون . ومهما كان طريقكم مظلماً وعراً طويلاً لا تخافوا ولا تملوا ولا تركنوا الى نسيب أو صديق وسواء احبكم الناس أو بغضوكم وسواء تملقوكم أو احتقروكم الزموا ابداً طريق الاستقامة والصلاح وتوكلوا على الله ولا تخافوا أبداً

وأما المال الذي يجد عامة الناس في كسبه فهو عبارة عن كل ما يمكن تحصيله بالشراء وهو قوّة عظيمة للانسان ان يتصرف فيها للخير أو للشر كما يشاء . فاذا

ناله بالحلال وصار به غنياً اي مكتفياً بما عنده لا يحتاج الى التسوّل الذميم وبذله في وسائل الراحة والعيشة الهنيئة وجعل منه نصيباً في الاحسان للمساكين كان خيرًا عظيماً خلافاً لما اذا ناله ببعض طرق الحرام أو صار له الهاً يعبده أو وسيلة للبذخ والفجور أو ولعاً يلهيه عن مصالح نفسه العليا ويسلب منه الانسانية ويسد اذنيه عن صراخ المسكين فيكون عند ذلك ويلاً كبيرًا له في هذه الدنيا والآخرة فهو الذي يرفع التمدن ويشيد اعمدة العلم ويبني المدارس والمستشفيات وبيوت الفقراء ويرقي الانسان المحسن الى مقام عليّ في تاريخ الجود والفضل والكرامة وهو الذي يهدم الآداب ويملأ القلوب حزناً والبيوت بكاء ويحط الرجل في صفاته الى ان يصير بخيلاً ذميماً أو مسرفاً فاسقاً مكروهاً عند الله والناس . فاذا تيسر لكم ان يأتيكم فلكم خيار أحد الامرين

ووصايا الحكماء بشأن المال أولاً الاقتصاد أي انه يعدل الرجل بين الاسراف والتقتير بحيث لا يكون مبذرًا ولا بخيلاً فاذا لم يصر ذلك عادة مستمرة وملكة في النفس فهيهات للانسان ان يجمع المال أو يتخلص من عذاب الفقر أو يتهيأ لصروف الدهر . ومن امثال الحكمة القليل مع التدبير خير من الكثير مع التبذير . ثانياً الصدق في المعاملة وهو قاعدة النجاح لان الانسان الذي لا يجعل الصدق صفة لازمة لاعماله لا يكتسب ثقة الناس واذا باعه بالمال كان خاسرًا يتعذب ابدًا بما يعرفه في نفسه مما اكتسبه في الحرام وبما يعلمه الناس من حقيقة امره . ثالثاً التصدق على الفقراء وعمل الخير . ومن امثال العامة بهذا الشأن المركب الذي لا شيء فيه لله يغرق . وقد تقدم كلام المصر بين القدماء في هذا الصدد وورد في التوراة من يسد اذنيه عن صراخ المسكين فهو أيضاً يصرخ ولا يستجاب . وفي الانجيل تعالوا يا مباركي أبي رثوا الملكوت المعدّ لكم منذ تأسيس العالم لاني جعت فاطعمتموني عطشت فسقيتموني كنت غريباً فآويتموني عريانا فكسوتموني . وجاء في الحديث الشريف الخلق عيال الله واحبّ الناس الى الله انفعهم لعياله . رابعاً اجتناب الدّين لانه عبارة عن

العبودية . فلا تشترِ الا نقداً ولا تنفق غرشاً الا وأنت حاسبه وعارف انه في وسعك ولا تكن نفقتك اكثر من دخلك . ومن امثال العامة حاسب نفسك تسلم . ومن امثال الاسبنيوليين من يشكو النوم الكثير فليقترض وسادة المديون . وقال بعض فضلاء الانكليز الجوع والبرد والرثة واجهاد العمل وازدراء الناس ومظنتهم وافتراؤهم امور مكروهة وشرٌّ منها جميعها الدين فابعد عنه كما تبعد عن الشيطان . ثم اياك والقمار الذي صار دأباً للكثيرين تريد ان تربح به المال بلا تعب فياتيك بالخراب والهوان وأن تنتفع باذى غيرك فيرتدّ الاذى اليك . وهو عادة اذا تمكنت صارت ملكة قاهرة للانسان توثقه باشد الوثاق وتجعله عبداً ذليلا لها فأبعدوا عنها قبل ان تستولي عليكم وتجذبكم الى هاوية الهلاك . وهي لا تأتي الا بضرر الصحة وافساد الذكر الحسن والبطالة والخراب الكامل عاجلاً أو آجلاً

والاقتصاد في الزمان واجب كالاقتصاد في المال لان من يشغل زمانه بالعمل يشغله بالربح ومن يشغله بالكسل واللهو لا يخسر ما يمكن ربحه فقط ولكنه يخسر ايضاً شيئاً كبيراً من حسن الاخلاق فان الانسان يكون بحسب ما يتصرف في الزمان . وقال سنكا الفيلسوف الروماني اننا نشكو قصر الزمان ونحن لا نعرف كيف نشغل ما عندنا منه واننا نصرف حياتنا الى البطالة أو بعمل ما لا فائدة منه أو باهمال ما يجب علينا . نشكو ابداً قصر العمر ونتصرّف كاننا خالدون في الدنيا . ومما يعين في هذا الاقتصاد النظام في العمل بحيث يكون لكل ساعة من ساعات النهار والليل ما هو خاص بها . فان الذين اشتهروا بكثرة الاعمال واتقانها وجودتها من رجال العلم والسياسة والتجارة والصناعة هم الذين جعلوا لكل امر وقتاً فرتبوا زمانهم ونسقوه استدراكاً للمهام التي كان قضاؤها مستحيلا لولا نظام العمل الذي نهجوه . واذا بلغ اجل ما تعاهدون به انفسكم أو غيركم فعليكم بالضبط التام في الميعاد سواءٌ كان ذلك لملاقاة الناس أو وفاء الدَّين او الوعد أو

الذهاب والوصول أو النوم والقيام لان نكث العهد مهما كان عارٌ على الانسان ومضرة له

والغدر بالعهد قبيح جدًّا شرُّ الورى من لا يراعى عهدا

ثم لا بدَّ ايضاً من الاقدام في العمل اي ان يبادر اليه بالهمة بلا توانٍ أو تردد أو تقلب لئلا تفوت الفرصة أو يُمَلُّ من الامر قبل الشروع فيه كما قال الشاعر

غفلة المرء عن دواعي المعالي من دواعي تخلف الآمال

فكما انك لا تقف في يوم بارد تقشعر امام الماء الذي تستحم به بل تغطس فيه في الحال هكذا لا تصرف زمانك في الكلام وعقد النية والمماطلة بل اذهب واعمل حالا ما انت عامله . والممنوع هنا لا التروي والتأني والمشورة بل التكاسل والتردد لان الذين يتقلبون في نواياهم ومقاصدهم هم الضعفاء الذين لا يفلحون في الدنيا المشار اليهم في المثل السائر يوم العاجز غدٌ . وقال بعضهم لا تدفعنَّ عملاً عن وقته فان للوقت الذي تدفعه اليه عملاً آخر ولست تطيق ازدحام الاعمال لانها اذا ازدحمت دخلها الخلل (لعله من قول الامام علي)

وفي الصداقة امر كبير للانسان وخاصة للشبان لانها تأتيه بالفائدة اذا كان العشير اديباً كما انها تأتيه بالضرر والعار اذا كان دنيئاً لئيماً فيحكم فيك ما يحكم في صديقك ولا ظلم في ذلك لانه لا يتأتى ان تكون مودة بين اثنين ولا يكتسب الواحد منهما شيئاً من الآخر ولذلك قالوا لا تصحب الشرير فان طبعك يسرق من طبعه شرًّا وأنت لا تعلم وقالوا

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي

وقالوا

واحذر مواخاة الدنيء فانه يعدى كما يعدي الصحيح الاجرب

وقالوا

حسب الكريم مذلةً ومسبةً ان لا يزال الى لئيم يرغب

وبناءً على ذلك كانت الوصايا بهذا الشأن ان لا تتخذ خليلاً الا من كان قياسه في الادب ارفع من قياسك فلا تعجل بل تأنَّ في انتخاب صديقك

ان الرجال صناديقٌ مقفلة وما مفاتيحها غير التجاريب

ثم اذا واليته فلا تقطع حبل ودادك الا لامر كبير وكن صبورًا لعل الخلاف يزول

والقَ الاحبة والاخوانَ قد قطعوا حبل الوداد بحبل منك متصل

فأعجزُ الناس حرٌّ ضاع من يده صديق ودٍّ فلم يردده بالحيل

وليكن بينك وبينه شيء من المساواة في السن ورتبة الحياة لانه اذا كان ارفع منك مقاماً أو غنى فربما عاملك معاملة الرفيع للوضيع وهو ذلٌّ لك وان كان ادنى منك فربما عاملته انت بمثل ذلك وهو ذلٌّ له . ولا تكثر من مخالطة الناس فربما اصاب الشاعر في قوله

كن ما استطعتَ عن الانام بمعزلٍ ان الكثيرَ من الورى لا يصحب

ومن الامثال وحدة المرء خير من جليس السوء . وقال بعضهم اطول الناس سفرًا من كان في طلب صديق يرضاه . واما قول الآخر الصديق اسم على غير معنى وحيوان غير موجود فمن باب المبالغة أو لا يقوله الا ناقص المروءة الذي يطرح اثقاله على اصدقائه ويكلفهم اكثر مما يحق له وينسى المثل القائل صبرك على الاكتساب خير من حاجتك الى الاصحاب والمثل الآخر اذا وجدت حاجتك في السوق فلا تطلبها من اخيك

وكما تنتخبون الاصدقاء ولا توالونهم الاَّ اذا رأيتم فيهم الفضل وحسن الاخلاق هكذا اختاروا الكتب التي تقرأونها فهي خير الجلساء اذا كانت مما يتضمن حكمة الازمنة السالفة والحاضرة لانها تزيدكم علماً وتهديكم سراط الحياة المستقيم وتفعل فيكم فعل قدوة الصديق اذا كان عالماً كريماً . وكما تحذرون جليس السوء ومعاشرة اللئيم ابعدوا عن الكتب التي تفسد النفس او التي لا خير في قراءتها لما فيها من ركاكة العبارة والمعنى . وقد كثرت في هذه الايام ترجمة الروايات

وعمد اليها الاحداث فلا بدّ من التمييز بينها واختيار الادبي المفيد منها ونبذ ما كان مضرًّا بالاخلاق . واني لأجفل متى دخلت بعض بيوت هذه المدينة ورأيت بجانب الاسرة الروايات في لغات شتى التي أعلم حق العلم ان الكثير منها لا يستحق القراءة وبعضها يجب لها الطرد كما يطرد السفهآء في الحال اذا رأيناهم مع أبنائنا وبناتنا . ولا أنسى اني أخاطب الآن الذين تعلموا بعض اللغات الاجنبية مع اللغة العربية فأقول لهم اعمدوا الى أفضل ما كتب في اللغات التي تعرفونها وأقرأوها المرة بعد المرة الى أن ترسخ معانيها في ذهنكم وتتعلموا منها منهج العقل السليم وفصاحة العبارة و بلاغتها ومن المحال أن تطالعوا الكتب النفيسة وتصاحبوا في خلوتكم أصحاب العقول الرفيعة والمعارف الكثيرة والانشاء البليغ ولا تربحوا فائدة ظاهرة وتنالوا لذة عقلية وقوة للنفس ورفعة في المقام الانساني وعونًا لاعمال الحياة أو لاحتمال سوئها . غير أنه من الواضح أن جانبًا عظيمًا من مطالعتكم يجب أن يكون في ما هو خاص بالحرفة التي تحترفونها لاشغال حياتكم وكسب معيشتكم حتى تكونوا فيها ماهرين وتنالوا اذا أمكن رتبة بين مناظريكم

وليس المراد بكل ما تقدم من الحث على العمل أن تشغلوا جميع الزمان بالكد المتصل وان تغفلوا عن الرياضة واللهو والتنزه التي تطلبها قوانين الصحة ويرشدكم اليها صوت الطبيعة . لانه اذا أدى الكسل الى الحرمان فمثله العمل بلا راحة الذي ينتهي الى خسارة الصحة بحيث أنها اذا زالت لم يبق محل للنجاح بل قد تزول الحياة كلها مع زوالها . فلا تطمعوا بدوام العافية التي هي أعظم النعم و بنوال ما سماه قدماء الرومانيين العقل الصحيح في الجسد الصحيح الاّ اذا تفرّغ بعض زمانكم اليومي للرياضة الجسدية واللهو العقلي لانه كثيرًا ما يقع الانسان في العلل بل قد يموت شهيدًا في سبيل العمل الدائم بلا انقطاع ولا راحة فاسعوا الى الكفاية من ذلك كما تسعون الى الكفاية من الطعام والشراب والنوم واللباس والمأوى والنظافة والهوآء النقي فهي جميعًا مما لا بدّ منه ولكن أحذروا الافراط فيها والفاسد منها لئلاّ تصير دأبًا يشغلكم عن مهام الحياة أو وسيلة لاتباع أهواء

النفس الأمارة بالسوء ولا تحسبوا أيضاً ان أقوال الحكماء ونصائح الشيوخ ووصايا الدين الادبية تمنع الشاب عن الفرح والسرور ولذة الحياة اذا كان جائزاً احلالاً أو تلزمه باكثر مما تطيق من الرصانة والرزانة لان شيخ الحكماء ذلك الامير المصري الذي كتب للشبان منذ خمسة آلاف سنة يقول لهم كن أبداً طليق الوجه هل رأيت أحداً خرج من تابوته وقال كاتب سفر الجامعة من أسفار العهد القديم افرح أيها الشاب في حداثتك وليسرك قلبك في أيام شبابك ان عاش الانسان سنين كثيرة فليفرح فيها كلها وقد كرر معنى هذه العبارة في كتابه سبع مرات وعلى هذا لا تكون أقوال الحكماء وكتب الدين مما يعلم الانسان أن يسير في طريق الحياة كاسف الوجه حاملاً أثقال الهم والغم مع أثقال العلم والحكمة . وانما الذي منعوه هو ما يتوهمه الشاب سروراً اذا ذهب في طريق الحرام وقد اجمعوا بلا خلاف وبعد خبرة الوف السنين على أن الانسان لن يجد لذة ثابتة في مخالفة سنن الادب والحق والبر والعفة فاذا تعداها لقي عقاباً كثر أو قل على بعض انواعه كالقصاص الشرعي والألم والمرض والفقر والعار ولذعات الضمير والحساب امام الله في الآخرة

ولـلامور ولـلاعمـال عاقبة فأخش الجزا بغتة واحذره عن مهل

وقبل نهاية الكلام يجب أن أنبهكم الى أمر كبير يعينكم في تدبير حياتكم ونجاحكم وهو ما تسميه العامة بحسن السلوك ويريدون به حسن التدرب في معاشرة الناس كجودة الاخلاق واللطف والملاينة . . ويظهر المعنى في الحال من مقابلة فظٍ خشن الكلام عابس الطلعة يبعد الناس عنه ورجل لطيف بشوش ظريف العبارة حسن الهيئة يرحب به حيثما ذهب . ومن جوامع الكلم من لانت كلمته وجبت محبته ومن حكايات القوم أنه كان لرجل من أهل الوجاهة والغنى ولد وحيد أراد ان يحسن تربيته فأرسله الى شيخ عالم في بلد بعيد ليدرس عليه ولما شبّ الغلام وتلقى علوم ذلك الزمان رجع الى بيت أبيه ومن شدة فرحه قرع الباب قرعاً عنيفاً فسأل أبوه من هذا فقال الخدام هو ابنك جاء وبيده

اجازة العلم قال كلا بل لا يزال ابني ناقص التهذيب ليعد الى حيث اتى ولا يرجع الاَّ متى أحسن اللطف . ولا تحتقروا هذا القول وتظنوا انه يحمل الى التأنث الذي لا يليق بشأن الرجل بل اذكروا ان محاسن الاخلاق صفة النفس الرفيعة وانها كثيرًا ما تفتح اقفالاً عسرة المعالجة وتؤيد صدق المثل الجاري باللطف تقتنص الأُسود ويحصل كل مقصود . ولذلك اجهدوا في تربيتها في انفسكم اكرموا الشيوخ واحترموا النسآء ولاطفوا الخادم والمسكين كما تلاطفون صاحب الوجاهة والشأن . قيل في رجل انكليزي من كبار القوم انه اكتسب محبة الجميع له لانه بلا قصد مقصود كان يعامل الغني والفقير وضيوفه الاشراف وخدامه معاملة واحدة في الرقة والتلطف . وقيل في آخر منهم انه ردَّ يوماً تحية عبد اسود فأنكر عليه اصحابه وقالوا هذا غير المألوف فأجاب لعله يكون ولكن هل يسبقني الزنجي الى اللطف والادب . ولا نريد بما تقدم ان يتكلف الانسان ويتظاهر بما ليس هو عليه طبعاً أو اكتساباً لانه اذا لم تكن هذه الصفات فيه حقيقة لا يستطيع ان يربيها في نفسه ولو بالعنآء الطويل فذلك خير من المصانع المتملق الذي يتذلل لمن هو اعظم منه ويظهر الغلاظة لامثاله ولمن هم دونه وأما انتم فاكرموا انفسكم وأعزوها ولتكن فيكم المروءة التي غايتها ان يستحي الانسان من نفسه ويأنف الخساسة ويستكبر على كل ما يحط شأنه ويقول مع الشاعر

انا لا اختار تقبيل يدٍ قطعها اجمل من تلك القبلْ

فهذه ايها الشبان جلُّ وصايا الشيوخ لكم اذا اتبعتموها وجدتم شيئاً من الراحة والسعادة والنجاح في الدنيا

قد بلغتكم ما اجمع عليه اصحاب السن والخبرة والعقل والحكمة والصلاح في كل مكان وزمان وبقي لي ان اقول انه باطلاً ما يعظكم الواعظون وينصحكم الناصحون ما لم يكن من انفسكم ما يحكم على اهوآئكم ويردعكم عن الشر . فأصغوا الى ما في باطنكم من هذا الصوت الذي يصرخ ابدًا في اذنيكم ويقول انهضوا

بكل ما لكم من القوة والعزم لعمل ما يجب عليكم وابعدوا عن الخطاء واسبابه واذا سقطتم في تجربة او ورطة يعسر النجاة منها فلا تيأسوا بل جاهدوا وخلصوا انفسكم لانه

لا ترجع الانفس عن غيها ما لم يكن منها لها زاجرُ

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES
0040277640